الثورة السلمية في منظور غاندي

اللاعنف ضد العنف منهجا ثوريا

أ.د.علي اسعد وطفة

جامعة الكويت – كلية التربية

مركز الرافدين للدراسات والبحوث الاستراتيجية

http://www.alrafedein.com/

يناير(كانون الثاني) 2013

أ.د.علي أسعد وطفة

جامعة الكويت

الثورة السلمية في منظور غاندي
(اللاعنف) ضد العنف منهجا ثوريا

"أن تقتل إنسانا من أجل خير العالم أمر يتناقض مع خير العالم، ولكن أن تتألم وتضحي بنفسك من أجل العالم ذلكم هو الخير كله" ماوتسي تونغ .

مقدمة:

قد يبدو مفهوم الثورة السلمية للوهلة الأولى مفهوما كلاسيكيا لا يختلف كثيرا عن غيره من المفاهيم التي تجاوره في المكان وتجانسه في الدلالة. ولكن ما أن يـتأمل المرء فيه ويتمعن في تجلياته حتى يجد نفسه في فضاء فكري مترامي الأبعاد والأطراف، وفي خضم التمعن والنظر، يدرك المتأمل أن مفهوم اللاعنف يأخذ طابعا فلسفيا شامل التعقيد إذ هو مفهوم في فلسفة أو فلسفة في مفهوم.

وليس من المصادفة أن يرتبط هذا المفهوم ارتباطا عميقا بالحكمة الإنسانية الشرقية، بما تشتمل عليه هذه الحكمة من إشراقات إنسانية، وشطحات صوفية كانت وما زالت قادرة على التوغل في أعمق مناطق الوعي الأخلاقي والوجداني في الإنسان؛ وليس غريبا أن يتعانق جمال هذا التسامح الصوفي المتضوّع بالحكمة الشرقية، مع سمو الحكمة المسيحية القديمة، وليس من العجب أيضا أن يخفق بين هاتين الحكمتين قلب المهاتما غاندي الكبير، الذي مَتحَ رحيق المحبة والتسامح من معين الحكمة الهندية القديمة، ونهل من معين الحضارة الغربية المتدفقة، فجاء عطاؤه غمرا إنسانيا مصقولا في منهج فكري فلسفي أصيل، فأخذ

المفكرون من ذلك العطاء يرتحقون ومن هذا الفكر ينهلون في سبيل بناء فلسفة إنسانية للسلام قادرة على أن تنير دروب الشعوب المظلومة والمغلوبة على أمرها في نضالها من أجل الحق والحرية والسلام.

لقد استلهم المهاتما غاندي(1) حكمتي الشرق والغرب، فأخصب ما بينهما ليشيّد فلسفة جديدة كان لها أثر كبير في توجيه النضال الإنساني من أجل الحرية والسلام. ولكن حبه للسلام ونضاله من الحرية لم يحصناه ضد الشهادة التي كان يطلبها تيمنا بقوله "**تعلمت من الحسين كيف أكون مظلوماً فأنتصر**" (2). فكان على موعد من الشهادة وكان له ما أراد، حيث منحه أحد الهندوس المتعصبين شرف الشهادة فنهض بها رمزا للحرية وعنوانا لفلسفة النضال السلمي من أجل الحرية والسلام (3). رحل غاندي ولكن أنساقه الفكرية مازالت تشكل طاقة إنسانية حيوية تعتمدها الشعوب في النضال ويعتمدها المفكرون في تأجيج هذا النضال وعقلنته فكريا ونظريا مستلهمين روح غاندي وفلسفته(4).

مؤثرات غاندي:

تشكل الحكمة الهندية القديمة (التاوية والبوذية والبرهمانية) المصدر الأساسي لفلسفة غاندي التسامحية. ويمكن القول بأن تأثير البوذية كان واضح المعالم في فكر وسلوك غاندي. ومن يتمعن جيدا سيجد بأن بوذا كان بمثابة المثل الأعلى لغاندي، وذلك نظرا للتجانس الكبير في السلوك والتفكير والعقيدة. وقد تبين لنا بعد قراءة متأنية لسيرة الرجلين وجود تأثير كبير لبوذا في غاندي، علما بأن الدراسات الجارية حول غاندي لا تتضمن الإشارة إلى هذا الأمر على الرغم من أهميته، وقد يعود ذلك إلى أن غاندي لم يُلحّ على هذا الجانب لأسباب قد تكون عقائدية. ومع ذلك فإنه تجب الإشارة إلى أن البوذية من أكثر العقائد تأكيدا على قيم التسامح، وأكثرها رفضا لكل أشكال العنف والإكراه والظلم، وهذا ما تقتضيه بالضرورة عقيدة التناسخ التي تشكل الصمام العقائدي للبوذية.

ومن أجل أن ندلل على أهمية التأثير الكبير للبوذية في فكر غاندي التسامحي يمكننا أن نورد نموذجا فكريا حول قيمة التسامح البوذي في حوار يجرى بين بوذا وبورنا (أحد مريديه)، لقد أراد بوذا لمريده بورنا هذا أن يذهب إلى قبيلة(سرونا بارانتا) لنشر دعوته، وكان بوذا يعلم أن هذه القبيلة معروفة بالشراسة و الخشونة و لا ينجح معها إلا الرجل الحكيم الصبور، فأراد بوذا أن يعرف مدى استعداد (بورنا) هذا لتحمل مشقة الدعوة وعناء المواجهة عبر الحوار التالي بينهما:

– بوذا: إن رجال هذه القبيلة قساة القلوب سريعو الغضب، فإذا وجهوا إليك ألفاظا بذيئة خشنة، ثم غضبوا عليك و سبّوك، فماذا أنت فاعل؟

– بورنا: أقول لا شك إن هؤلاء قوم طيبون لينو العريكة لأنهم لم يضربوني بأيديهم و لم يرجموني بالحجارة.

– بوذا: فإن ضربوك بأيديهم و رجموك بالحجارة فماذا أنت فاعل؟

– بورنا: أقول بأنهم قوم طيبون لينون إذ لم يضربوني بالعصي و لا بالسيوف .

– بوذا: فإن ضربوك بالعصي و السيوف؟

– بورنا: أقول بأنهم قوم طيبون ورائعون لأنهم لم يحرموني من الحياة نهائيا.

– بوذا: فإن حرموك الحياة؟

– بورنا: أقول بأنهم قوم طيبون إذ خلّصوا روحي من سجن هذا الجسد السيئ بلا ألم كبير.

– بوذا: أحسنت يا بورنا انك تستطيع بما أوتيته من الصبر و الثبات أن تسكن في بلاد قبيلة سرونا فاذهب إليهم وخلصهم مما هم فيه.

وهذا الحوار يدلل بصورة واضحة على عظمة فكرة التسامح في البوذية ورفضها للعنف بصورة مطلقة. كما يدل من جهة أخرى على أهمية تطهير النفس من مطلق الشرور التي تتصل بالقلب الإنساني مثل الكراهية والبغضاء والحقد والخوف. فبورنا في هذه الصورة لا يخاف ولا يوجد في قلبه إلا مطلق الحب والتسامح. وذلكم جوهر التسامح الذي يشكل صميم الفكرة الغاندية لمفهوم اللاعنف.

وما لا شك فيه أيضا أن غاندي قد تأثر بصورة كبيرة جدا بالحكمة المسيحية القديمة التي تتجانس مع جوهر البوذية في رفض العنف وطلب المحبة والسلام الأبدي. فاللاعنف يأخذ صورة حكمة إنسانية خلاقة في المسيحية الأولى دين المحبة والسلام. لقد أفاض السيد المسيح عليه السلام في دعوته الإنسانية الشاملة إلى المحبة والخير والإخاء الإنساني وإلى الرفض المطلق للعنف طلبا للمحبة والتسامح والسلام؛ وتكمن هذه الحكمة كليا في قوله المقدس "أحب أعداءك وأحسن إليهم". وفي قداسه الشهير أو عظة الجبل حيث يقول: " **لا تناهض الشر، فمن ضربك على خدك الأيمن قدم له الأيسر (...) افعل الخير لمبغضيك وصلي من أجل ظالميك**"(5). وتلك هي نماذج من الشهادات المسيحية الأولى على قيمة اللاعنف ودوره في الحياة الإنسانية. وقد شكلت مقولة السيد المسيح حكمة إنسانية ولكنها تجاوزت حدود الحكمة واتخذت لها

صورة برنامج نضالي لمواجهة الأقوياء، وقد تجلت هذه الصورة الجديدة للمفهوم التي اتخذت من اللاعنف منهجا في مقاومة القهر الاستبداد، في ما سجله التاريخ من مقاومة البابا ليون Le pape Léon السلمية لاجتياح أتيلا Attila، عندما قام هذا الأخير بمهاجمة روما، وقد دهش أتيلا (6) عندما لم يجد أي مدافع أو مقاتل على الأسوار، وكان الناس يصلون في الكنائس، وكان رجال الدين من كهنة وقساوسة يطوفون بالدعاء المسالم والتراتيل الدينية في أرجاء المدينة، واستطاع البابا بطريقته هذه إنقاذ المدينة من السلب والحرق والاجتياح. وهناك عدد من الطوائف المسيحية التي مارست مبدأ اللاعنف في مواجهة القضايا السياسية، واقتصر اعتراضهم على الجانب الأخلاقي مثل(المومونيتس Mennonites والأميش les Amish والمورمون les Mormons في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية؛ والدوكهوبورس Doukhobors في روسيا، والهيتريت Hutterites في مورافيا.

ولا يتنكر غاندي أبدا لتأثره بالفكر الإسلامي وإعجابه به، إذا كان لشخصية النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) تأثير كبير في التكوين الفكري عند غاندي، ولنترك غاندي يعبر عن هذا التأثير بنفسه حيث يقول" لقد أردت أن أتعرف على أفضل ما في حياة شخص تخفق له قلوب ملايين من بني البشر... ولقد اقتنعت أكثر من أي وقت مضى بحقيقة أن السيف لم يكن هو من فاز في تلك الأيام، بل كانت البساطة والحب والتسامح، والمحو الذاتي التام للنبي(صلى الله عليه وسلم)، والاحترام الدقيق للعهود، والتكريس العظيم تجاه أصدقائه وأتباعه، وجرأته،وقلة خوفه، وثقته التامة بالله وبرسالته. هذه القيم الإنسانية وليس السيف هي السلاح الذي اعتمده المسلمون الأوائل في انتصارهم الإنساني. يقول غاندي عندما قمت بإغلاق المجلد الثاني (من سيرة النبي)، قمت بذلك بأسف لأنه ليس هنالك المزيد لأقوم بقراءته عن هذه الحياة العظيمة. ليس هنالك طريق للسلام، بل أن السلام هو الطريق "(7). ومما لا شك فيه أن تجربة انتشار الإسلام في الشرق الأقصى دون استخدام للقوة تجربة مثيرة للاهتمام ومن الضرورة بمكان لرجل في مقام غاندي أن يتلقف المعاني الأخلاقية التسامحية لهذه التجربة العظيمة.

كما يمكن الإشارة عدد من المفكرين الغربيين المحدثين الذين أثروا في فكر غاندي وفلسفته، مثل: الفيلسوف الإنكليزي النقدي جون راس كينغ John Ruskin، وليو تولستوي Léon Tolstoï في روسيا الذي تبادل الرسائل مع غاندي الشاب في نهاية حياته ما بين 1909-1910، في الوقت الذي كان فيه غاندي يناضل من أجل تحرير الهند والدعوة إلى الحقوق المدنية للهنود في جنوب إفريقيا(8). ويمكن الإشارة أيضا إلى الشاعر الأمريكي هنري دافيد تورو Henri David Thoreau (1817-1862) الذي ألف كتابا حول الحق في الرفض المدني (*Civil Disobedience* , 1849) وهو الكتاب الذي أثر في كل من

غاندي وكينغ. لقد أسس تورو لأهمية الحكم الصادر عن الوعي الأخلاقي، حيث يرى أن الأحكام الأخلاقية الصادرة عن الوجدان الأخلاقي تكون عادلة بالضرورة وهي تعلي من شأن الكرامة أكثر من الخضوع للقانون. هذه النزعة التسامحية الفردية عند تورو أثرت في غاندي، واستطاعت أن توقظ فيه إحساسا متوقدا بالتقاليد الهندية القديمة المتعلقة باللاعنف والتسامح (9) .

وباختصار، يمكن القول بأن غاندي قد تأثر بعدد من المؤثرات الفكرية التي كان لها دور كبير في بلورة فلسفته ومواقفه السياسية، لقد تأثر غاندي وأيما تأثير بـ "نشيد الطوباوي" وهي عبارة عن ملحمة شعرية هندوسية كتبت في القرن الثالث قبل الميلاد واعتبرها غاندي بمثابة قاموسه الروحي ومرجعا أساسيا يستلهم منه أفكاره. كما تأثر تأثيرا كبيرا بموعظة الجبل اليسوعية، وفوق ذلك كله بكتاب" حتى الرجل الأخير " للفيلسوف الإنجليزي جون راس كينغ الذي مجد فيه الروح الجماعية والعمل بكافة أشكاله، وكتاب الأديب الروسي تولستوي" الخلاص في أنفسكم" الذي زاده قناعة بمحاربة المبشرين المسيحيين، وأخيرا كتاب الشاعر الأميركي هنري ديفد تورو" العصيان المدني". ويبدو كذلك تأثر غاندي بالبراهمانية التي هي عبارة عن ممارسة يومية ودائمة تهدف إلى جعل الإنسان يتحكم بكل أهوائه وحواسه بواسطة الزهد والتنسك وعن طريق الطعام واللباس والصيام والطهارة والصلاة والخشوع والتزام الصمت يوم الاثنين من كل أسبوع. وعبر هذه الممارسة يتوصل الإنسان إلى تحرير ذاته قبل أن يستحق تحرير الآخرين(10) .

في مفهوم اللاعنف عند غاندي: الأهيماسا والساتياغراها:

صقل غاندي مفهوم اللاعنف وقدمه للإنسانية منهجا أخلاقيا في النضال الإنساني من أجل الحرية والحقيقة. ويرتكز مفهوم اللاعنف عند غاندي على ركيزتين أساسيتين هما الأهيماسا والساتياغراها. ولا يمكننا فهم الدلالة الفكرية لمفهم اللاعنف عند غاندي من دون العودة إلى هذين المفهومين.

فاللاعنف ترجمة لكلمة A-himsa **في اللغة** السنسكريتية (لغة البراهمة القديمة في الهند). وهذه الكلمة موظفة في اللغة السنسكريتية وفي النصوص البوذية والهندوسية واليانية. و تجدر الإشارة في هذا السياق إلى أن الديانة اليانية – إحدى ديانات الهند القديمة — كانت تعتمد منهجا في تطهير النفس الإنسانية باللاعنف. وهذه الكلمة كما هو مبين مركبة من كلمتين هما العنف ونفيه في السنسكريتية فكلمة himsa تعني الرغبة في التدمير واستخدام العنف ضد كائن حي، وبالتالي فإن إضافة البادئة "a" تعطي الكلمة معنى النفي فتتحول الكلمة إلى صيغة a-himsa وهي هنا تعني العرفان والترويض والسيطرة على الرغبة

والميول والعنف الذي يوجد في داخل الإنسان وهي الطاقة التي تدفع الإنسان إلى إقصاء الآخر وإيذائه وإبعاده ومن ثم إماتته.

ويعد مفهوم الساتياغراها الركيزة الثانية لمفهوم اللاعنف عند غاندي. لقد اتخذ غاندي مفهوم الساتياغراها شعارا لمسيرته النضالية، وعنوانا لفلسفته الأخلاقية، والساتاياغراها graha *saty* كلمة سنسكريتية قديمة تعني قوة الحقيقة (*saty* =قوة – *agraha* =الحقيقة). وهكذا قام غاندي بتسويق فكرة "الساتياغراها" المعتمدة على التزاوج ما بين الحقيقة (ساتيا) والحب (أغراها). ومن هذه الفكرة استنبط مبدأ المقاومة اللاعنفية، باذراً بذلك البذرة الأولى لحركة شعبية جماهيرية ستتوسع وتتعدد وسائلها السلمية وينحني لها العالم احترام(11) .

وفي التصور الجديد لهذا المفهوم تأخذ الساتياغراها صورة القوة الأخلاقية في أسمى صورها، "إن الثبات على الحقيقة يحتاج إلى إرادة كبيرة لا تتوفر لأي كان، لأن هذا الثبات سيتعرض لامتحانات كثيرة، قد تجبر كثيرين على التراجع والتسليم. كما أن الثبات على الحقيقة يتطلب أن يكون الإنسان مستعداً للتضحية وتجشم عناء التعذيب والاضطهاد، وهذا كله يحتاج إلى قوة وإرادة واستعداد للبذل والتضحية"(12). والساتياغراها فوق ذلك كله تجسد مبدأ الحب، إذ لا تدعو أبدا إلى كراهية الخصوم والحقد عليهم، وهذا ما كان غاندي يحثّ أتباعه عليه ويحضهم على كره الإثم وليس الآثم، ووفقا لهذا التصور فإن الساتياغراها تعتمد الحب الإنساني وتركن إليه في مواجهة العنف والكراهية والانتقام.

ومن جديد يجب التأكيد أن الساتياغراها تحتاج إلى ضبط النفس والتحكم بالذات، والصبر وقوة الاحتمال، "فمن يتعرض للأذى بسبب موقفه الثابت على الحق، ولا يرد العنف بمثله، ولا يسمح للبغض أو الرغبة في الانتقام بالتسلل إلى نفسه إنسان قوي جداً، وليس ضعيفاً أبداً"(13). والساتياغراها ليست حركة رفض غير واعي لمجرد الرفض، بل هي حركة واعية عاقلة تعرف ما تريد، وتعرف لماذا تقاوم، وبعبارة أخرى ليست حركة فوضى وشغب، بل حركة بناء وتصحيح (14) .

لقد عمل غاندي على نشر مبدأ الساتياغراها وتوضيح معالمه، ووجد أن الشعب لن يفهم هذا المبدأ ما لم تقم فئة متنورة واعية من المفكرين والمناضلين باستخدامه بينهم بصورته السليمة الصحيحة، لذلك فقد توجه إلى العمل على إيجاد هذه النخبة المثقفة القادرة على فهم مبادئ الساتياغراها ونشرها بيم الناس بالصورة المثلى لمعانيها ودلالاتها (15) .

إن إصرار غاندي على نشر مبدأ (الساتياغراها) يدل على إيمانه العميق بها منهجا للمقاومة، ولا ننسى أن غاندي استخدم الساتياغراها في جنوب إفريقيا حيث كانت حينها بلدا عنصريا، وعندما كان الهنود فيها

جالية مهاجرة وهي على صغرها كانت متعددة الطوائف والأعراق والأديان. وعندما عاد غاندي للهند استمر في دعوته إلى فلسفة اللاعنف ومنهجه رغم أن الهند كانت بلداً محتلاً، عمل فيه الانكليز على تفرقة الناس وإثارة النعرات الطائفية بينهم، وقد وجد غاندي أن العنف يؤدي إلى الخراب والتدمير، بينما يأخذ الثبات على الحقيقة إلى وحدة الشعب الهندي ويجعلهم قوة لا يستهان بها قادرة في النهاية على تحقيق النصر المنشود(16).

وهكذا ووفقا لهذه الصورة فإن اللاعنف الغاندوي يأخذ صورة مبدأ أخلاقي، يرسخه غاندي بقوله: " **إنني أؤمن بمبدأ اللاعنف**" (17). وهو إذ يؤمن به فلأنه وكما يراه غاندي يشكل المنهج الصحيح في البحث عن الحقيقة، ولذلك يعلن دون تراجع أو تردد **بأن اللاعنف هو الطريق الذي يهتدي به الإنسان في بحثه عن الحقيقة، وأن اللاعنف والحقيقية مرتبطان برابطة لا ينفصم عراها أبدا**، وكلاهما يشكلان وجهين غير متمايزين لحقيقة واحدة(18) .

اللاعنف بين الحكمة والفلسفة:

يأخذ مفهوم اللاعنف كما أشرنا في البداية حضوره المميّز في الحكمة القديمة، حيث يتألق مضيئا في حكمة بوذا وفلسفته(19)، ويأخذ امتيازه الروحي في رسالة السيد المسيح ودعوته. وقد قدّر لهذا المفهوم أن ينتقل من صورته كحكمة إنسانية قديمة إلى هيئته كفلسفة إنسانية واعدة أومضها غاندي بعبقريته الأخلاقية في العصر الحديث.

ولكن حكمة اللاعنف الذي كان بالنسبة لأسلافه من المفكرين أداة فردية لتطهير النفس وتحسين أدائها الأخلاقي اتخذت على يد غاندي **صورة منهج فكري وفلسفة للنضال السياسي والاجتماعي ضد الظلم والقهر الذي تعانيه الشعوب.** وقد تعددت عوامل تطور هذا المفهوم من مقام الحكمة إلى وضعيته كفلسفة، وتنوعت دلالاته الوظيفية والفكرية، حيث اتخذ صورته الفكرية النضالية الأكثر سموا وتوقدا على يد المهاتما غاندي1869-1948 GANDHI (Mohandas Karamchand) الذي أسس له ليكون منهجا فكريا ونضاليا لتحرير الهند من الاستعمار البريطاني، وإلغاء نظام الطبقات الاجتماعية، وتحقيق المصالحة السياسية والمذهبية بين الهندوس والمسلمين. وقد استحق غاندي في نضاله الفكري السلمي احترام وتقدير الشعوب المناضلة والمفكرين الأحرار في مختلف أنحاء العالم، وقد تجلى هذا التقدير في قول المفكر الأمريكي مارتن لوثر كينغ King Martin Luther (1929-1968): " لقد أحيا المسيح الروح في أعماقنا فعلمنا

غاندي كيف نعيشها"«Le Christ a fourni l'esprit, Gandhi a montré comment l'utiliser» (20).

لقد برهن غاندي عبر نضاله السلمي أن مفهوم اللاعنف بأبعاده الإنسانية يشكل أداة حقيقية في الصراع من أجل الحق والعدالة ونصرة المستضعفين والمظلومين، وبرهن أيضا أن هذا المفهوم يمتلك قدرة هائلة في تحقيق الأغراض السياسية والاجتماعية للشعوب المستضعفة في مختلف أنحاء العالم. وانطلاقا من النجاح الكبير الذي حققه غاندي في توظيفه النضالي لمفهوم اللاعنف، بدأ هذا المفهوم يُستخدم كأداة نضالية في عدد كبير من بلدان العالم في الأمس واليوم، لقد استخدمه الأيرلنديون في نضالهم من أجل الاستقلال، ووظفه السود في الولايات المتحدة الأمريكية من أجل حقوقهم السياسية والمدنية، وتبناه الشعب الفرنسي لتحرير الجزائر من الاستعمار الفرنسي، وما زال هذا المفهوم يطرح نفسه بأدواته الفاعلة مشروعا إنسانيا نضاليا تتبناه الشعوب المغلوبة على أمرها في مواجهة مختلف أشكال والظلم والقهر الإنساني(21).

فاللاعنف، وفقا لغاندي، برنامج نضال متكامل، إنه سلاح حقيقي فاعل يمكن للضعفاء والمقهورين أن يوظفوه في معاركهم الإنسانية من أجل الحق والخير والسلام، ويمكنهم أن يستلهموه قوة قادرة على إحياء الوعي الأخلاقي للجماهير، وتثوير الرأي العام، وفضح الجرائم الأخلاقية للظالمين، وإيقاظ الضمائر، وإحياء القلوب الميتة، وفتح العيون الهاجعة، وهو في النهاية، وعندما يحسن استخدامه، يؤدي إلى إضعاف عزيمة المعتدي وهزم إرادته، وكسر شوكته ودفعه إلى طاولة الحوار والبحث عن السلام.

جبروت اللاعنف وقوته: اللاعنف ليس ضعفا واستسلاما.

يقول غاندي «يمكن لمجموعة صغيرة من الشجعان بعزيمتها وإيمانها أن تغيّر مجرى التاريخ» (22). وكان يؤكد دائما "بأن أعتى نظام سياسي يمكن إسقاطه بدون سفك قطرة دم واحدة" (23). ويتضح هذا الأمر في قول الفيلسوف البريطاني برتراند راسل الذي رفض الاشتراك في الحرب العالمية الأولى: "إذا استعمل شعب بأسره المقاومة السلبية بإصرار وإرادة عازمة وبنفس القدر من الشجاعة والانضباط اللذين يظهرهما الآن في الحرب، فبإمكانها أن تحقق حماية اكبر وأتم لكل ما هو جيد في الحياة العامة مما تستطيع أن تحققه القوات البرية والبحرية وبدون أي من تلك المجازر والخسائر ومشاهد القسوة التي ترتبط بالحرب الحديثة"(24).

لقد أوضح غاندي، في كثير من المواقف والرؤى والاتجاهات، أن اللاعنف ليس عجزا أو ضعفا أو استسلاما أو هزيمة بل هو كما يقول:" أعظم قوة متوفرة للبشرية، إنه أقوى من أقوى سلاح دمار تم

تصميمه ببراعة الإنسان". وهو بذلك يوضح بأن اللجوء إلى العنف قد يكون مبررا ومشروعا في حالات معينة حيث يقول: "إنني قد ألجأ إلى العنف ألف مرة إذا كان البديل القضاء على عرق بشري بأكمله". فالهدف من سياسة اللاعنف في رأي غاندي هي إبراز ظلم المحتل من جهة وتأليب الرأي العام على هذا الظلم من جهة ثانية تمهيدا للقضاء عليه كلية أو على الأقل حصره والحيلولة دون تفشيه.

وفي هذا تقول سونيا غاندي رئيسة الائتلاف التقدمي الموحد في الهند: "يعتقد البعض أن اللاعنف هو دليل على الضعف أو الجبن، ولكن هذا بعيد تماما عن الحقيقة. إن اللاعنف يتعدى المقاومة السلبية أو العصيان المدني، فتتطلب ممارسته الحقيقية انضباطا صارما للعقل، وشجاعة لمواجهة العدوان، وقناعة أخلاقية لمواصلة المسيرة، والقوة لتنفيذ ذلك دون الشعور بأي حقد على الخصم" (25).

وغالبا ما يجري الخلط بين اللاعنف وبين السلبية والاستسلام، ولكن الأمر ليس على هذه الصورة أبدا، فاللاعنف شيء آخر مختلف تماما عن معنى السلبية والاستسلام، إنه وإن كان فعلا مسالما لاعنف فيه، فإنه نشاط حيوي فاعل ومؤثر، يمتلك طاقة حيوية من القوة والقدرة والاقتدار، ويتطلب في الوقت ذاته درجة عالية من السيطرة وضبط النفس، من أجل تحقيق مراميه الإنسانية. فالتمرد، ورفض الإذعان والخضوع، وعدم التعاون مع الظالم، والإضراب والمظاهرات، والاحتجاجات، والمسيرات، والاعتصامات، والندوات الفكرية المناهضة، هي في جوهرها صيغ من الممارسات التي يقتضيها مفهوم اللاعنف بدلالاته الإنسانية.

ومما لا شك فيه أن اللاعنف يمارس القوة والضغط والإكراه، ولكن ممارسة هذه القوة تجري في سياق مسار إنساني يتحلى بالقيم الأخلاقية ويستلهم معانيها، إنه عنف أخلاقي يستهدف إحياء الضمائر وتحريك الوجدان؛ **فاللاعنف يمتلك أدواته وقوته إنه سلاح، ولكنه سلاح إنساني بامتياز** لأنه يجعل الآخر أكثر إنسانية ويحرّض فيه كل المعاني المفترضة في الإنسان. وهو بذلك يتميز بنبله وأصالته وتفوقه الأخلاقي حيث يتم استخدام المعايير الأخلاقية الأفضل في حركته وفعله وممارساته. وعندما يحدث أن يجري العمل وفقا للمبدأ الأنوي الذاتي بعيدا عن مبدأ الحوار مع الخصم فإن الأمر يتحول إلى سياسة وليس إلى ممارسة لمبدأ اللاعنف بتعيناته الحقيقية. ولكن هل حقا يمكن للعنف أن يكون حلا مثاليا لمختلف أشكال الصراعات؟ وهل يمكن لهذا المفهوم أن ينمي لدى الأفراد وعيا أخلاقيا ليس له وجود في الحالة الفطرية للإنسان؟

اللاعنف طاقة روحية:

يومض اللاعنف بطاقة روحية تكره الخصم على التفكير وتدفعه لمراجعة الذات ووضعها في موضع التساؤل. وتكمن قوة اللاعنف هنا في قوة الحقيقية والعدالة التي تفرض هيمنتها على الناس والأفراد. **فالخصم كما يراه غاندي ليس عدوا يجب الانتصار عليه، بل رجلا ضالا غافلا يجب صدمة وإيقاظه من غفلته وغفوته.** وهنا نجد غاندي لا يدعو إلى الحقد على الخصم أبدا، بل يدعوا إلى الشفقة عليه دائما. **فاللاعنف يهدف إلى الكشف عن أخطاء الخصم وإصلاحها واستبعاد المفاهيم الخاطئة غير الأخلاقية لديه.** وبالتالي فإن الإنسان الذي لا يجد في نفسه الكفاءة على تمثل هذه الرؤية لا يمكنه أن يتابع النضال من أجل العدالة والسلام. فالعنف غالبا ما يكون ردة فعل على عنف الخصم واحتمالاته، وهو العنف الذي يجد في العنف المضاد تبريرا له، **ولكن عندما يصطدم هذا العنف بالفراغ فإنه يعقلن نفسه وتتبدد قوته.** وهنا يمكن القول بأن قلب الإنسان هو ميدان اللاعنف ومجاله الحيوي. فاللاعنف يمارس قوته ولكنه يستهدف الجانب الإنساني والوجداني في الإنسان.

إذا جارينا ما يذهب إليه الفيلسوف الإنكليزي هوبس Hobbes (Thomas) 1588-1679 بقوله إن "الإنسان ذئب الإنسان" «l'homme est un loup pour l'homme» فإنه لا يوجد حلّ آخر سوى استخدام كل الوسائل المتاحة من أجل القضاء على هذا الذئب الذي يهددنا (26). ولكن مفهوم اللاعنف لدى غاندي وعلى خلاف رؤية هوبس يريد أن يثق بالمبدأ الأخلاقي، وقد يكون هذا المبدأ مدفونا غائرا غائبا ولكنه بالتأكيد موجود في قلب الخصم. ووفقا لهذا التصور فإن المعركة ليست معركة فيزيائية بين طرفين متعارضين: بل في صميم الصديق والخصم حيث يجب على الإنسان أن يتحرر من هيمنة الغرائز البدائية والأولية التي تمنعه من إطلاق الوجدانية الكامنة فيه.

فاللاعنف لا يهدف أبدا إلى سحق الخصم ومغالبته، بل إلى الانتصار على الشر الذي ينمو في قلبه مانعا إياه أن يكون كما يجب أن يكون الإنسان. وإذا كان الناس قد تورطوا في أعمال الشر واستخدموه، فإن فلسفة اللاعنف تدرك هذه الحقيقة وتدفع مريديها إلى العمل على تطهير النفس الإنسانية من أدرانها وأوجاعها الكامنة في الشر والحقد والكراهية. وهكذا تأخذ فلسفة اللاعنف صورة منهج أصيل يعمل على تحريض الخصم على الحوار والتأمل مع ذاته ومع خصومه. وهنا تكمن الوسيلة الوحيدة لكسر حلقة العنف وتكره ممارسيه على التراجع. **وذلك لأن الرد على العنف بالعنف وعلى الشر بالشر يزيد العنف عنفا والشر شرا.** ولكن وعلى خلاف ذلك فإن اللاعنف يدفع بقوته الروحية أنصاره إلى التماهي مع قيم السلام

والخير والسلام. فالشر لا يوقفه الشر بل الخير هو الذي يستطيع أن يواجه نزعة الشر وطفرته كما يقول بوذا.

نوعية اللاعنف:

ينبع اللاعنف ينبع من قوة الحقيقة، ويعمل على تطوير العمق الداخلي للإنسان والارتقاء به. فاللاعنف لا يختزل إلى مجرد فعاليات آنية تكتيكية أو تقنية للصراع، **بل هو تدفق روحي وانسياب وجداني داخلي يتجلى في طلب الحق والعدالة.** ومع ذلك فإن اللاعنف يتطلب في الوقت نفسه تفكيرا وتأملا وتماسكا، وهو نتاج تخطيط بعيد المدى يأخذ في حساباته الأسباب والنتائج. فكل عدوان يولد ضغطا نفسيا وإحساسا بالإكراه وهنا يتوجب على الإنسان المسالم أن يضبط اندفاعاته المضادة للعدوان ويسيطر عليها، وهذا السلوك المنظم غالبا ما يأخذ طابعا اجتماعيا إذ يتجلى في نضال الطبقات الاجتماعية والأمم المغلوبة. وبالتالي فإن كبت الدوافع العدوانية يتطلب قدرة كبيرة على ضبط الأنا والسيطرة عليها. وهنا يجب تصحيح فكرة خاطئة: فاللاعنف لا يعني أبدا أن الإنسان المؤمن به هو كائن سلبي دائما، بل وعلى خلاف ذلك يتميز اللاعنفي بأنه مناضل شرس في البحث عن الحقيقة والكشف عن المظالم ومحاصرة الظالمين. ومن أجل ذلك يجب على المرء أن يحظى بالشجاعة والقدرة على التضحية الإنسانية التي تفوق تضحية الشهداء في ساحات الحرب.

وهنا يميز لانزا ديل فاستو بين البطولة في ساحة المعركة والبطولة الأخلاقية، ففي المجال الأخلاقي تتمّ مهاجمة الشر في النفس، بينما يهاجم الإنسان أخاه الإنسان في ساحة الوغى. فالإنسان الذي يؤمن بمبدأ اللاعنف يطلب العدالة من خلال القوة الداخلية الكامنة فيه، **وإذا ما تعرض للموت فإنه يعي تماما بأنه قد أخذ على عاتقه بأن يتحّمل هذا الأمر بدلا من أعدائه وجلاديه.** فاللاعنف مطهم بكل الدوافع الإيجابية الخلاقة المفعمة بالشجاعة والعزيمة والقوة. **فاللاعنفي يقدم نفسه قربانا على مذابح الحرية والعدالة والحق والخير والجمال.** إنه شهيد يَصفح لجلاده، ويعمل على بناء الخير المطلق في النفوس، وذلك عبر القوة الروحية التي تنطلق من القلب وتستقر في الوجدان. وفي الحقيقة فإن اللاعنفي (معتنق اللاعنف كصيغة للنضال) يمتلك قوة تربوية هائلة إنه يعلم ويربي ويضرب مثلا في معاني الحق والحرية والجمال.

إن الابتزاز العاطفي والأخلاقي شكل مرفوض في منهج اللاعنف، فالتهديد والوعيد والابتزاز عمليات لا قيمة لها ولا معنى في الصراع المسالم، لأن هذه الممارسات ليست ممارسة روحية بل هي نوع من الاحتيال الزائف لتحقيق المصالح الخاصة والأنانية. واللاعنف لا يهدف أبدا إلى تحقيق مصالح خاصة أنانية، إنه جهاد اجتماعي مكرس لتحقيق أهداف إنسانية تتميز بنبلها وسموها. وفي هذا الأمر يقول غاندي "**يمكنني أن أصوم ضد أبي من أجل أن يشفى من مرض أو عيب ولكنني لا أستطيع أن افعل ذلك من أجل أن أحظى بتركته** ". فالعنف الأخلاقي وسوء المعاملة ليست سلاحا مشرفا، إنه أداة تستخدم للقهر وليس لتحرير الإنسان ومخاطبة النزعة الإنسانية فيه. فاللاعنف دائما ما يجلجل نفسه بألوان النظام الروحي وشفافيته، وهو لا يمثل خطرا أبدا بل يدفع عن الإنسانية كل خطر ممكن وينمي في الإنسان قواه الإنسانية الخلاقة. وهكذا فإن اللاعنف يفقد سموه الأخلاقي وعمقه الفلسفي وطابعه الإنساني إذا لم يأخذ صورة غاية إنسانية عليا تتصف بسموها وصفائها.

لقد أوضح غاندي في كثير من محطاته المنيرة بأن النضال السلمي قد يخفق أحيانا إذا كان الخصم الذي يمتلك قوى قاهرة جبارة بلا ضمير أو أخلاق وهنا يجد أنصار اللاعنف أنفسهم أمام الموت المحتم. والسؤال هنا هل يجب على أنصار اللاعنف أن يتراجعوا ويتخلوا عن غايتهم الإنسانية إزاء هذه القوة الجبارة؟ وجواب غاندي هو لا وألف لا "بل يجب عليهم في هذه الحالة أن يتسلحوا ويقاوموا وإذا لم يكن هناك خيار أبدا إلا العنف فإنني أنصح بالعنف" ومع ذلك كله فإنه وفي مواجهة العنف المعاصر فإن غاندي ينصح بالعودة إلى قوة الروح (27).

وهنا بالتحديد يؤكد جان ماري ميللر أن **اللاعنف قوة حقيقية وليس مجرد حب مسالم، أنها قوة تمارس الضغط من غير عنف**، وقد بينت التجارب أن اللاعنف قد أثمر نتائج غالبا ما كانت مجدية، وهذا ما برهن عليه سيزار شوفيرز، والمدافعون عن حقوق العمال المكسيك في كاليفورونيا، حيث نجحوا في حملة مقاطعتهم للعنب والخمور في تحقيق النتائج المرجوة وتغيير الوضعية القائمة. والوضع هنا يتعلق بوضعية من اللاعنف (المسلح) الذي يشكل أداة المجتمع من أجل الحصول على نتائج عاجلة: وبدلا من نداء القلب يمكن العمل على مخاطبة المصالح ومن أجل ذلك يتم تنظيم اللعبة، وبعدها يتم تحريض العدد الكبر من الناس من أجل التعاون والمشاركة.

تجارب غاندي النضالية:

لقد بدأ غاندي حركته النضالية في جنوب إفريقيا، حيث عمل محاميا مدافعا عن حقوق العمال الهنود المهاجرين ضحايا التمييز العرقي، واستمر نضاله الإنساني ضد الظلم والقهر حتى استشهاده في وطنه الهند 1948. لقد ناضل غاندي ضد الحكم البريطاني في الهند، ومن أجل حقوق المنبوذين وضد الحروب الدامية بين المسلمين والهندوس مناديا بالحرية والسلام، واستطاع عبر نضاله هذا أن يسجل أعظم سيرة نضالية في العصر الحديث.

مسيرة الملح:

تعد مسيرة الملح من أكثر التجارب النضالية أهمية وخطورة في العصر الحديث، لقد أصبحت هذه المسيرة ملحمة تاريخية من ملاحم النضال السلمي في العالم أجمع. ففي فبراير (شباط) 1930، أعلن حزب المؤتمر الهندي، بزعامة غاندي، العصيان المدني للحصول على الحكم الذاتي، عبر رفض دفع ضريبة الملح التي فرضها البريطانيون، والسير نحو مصنع الملح في داندي رفضا لاحتكار البريطانيين لصناعة الملح في البلاد، وتأكيدا لحق الهنود في القيام بتصنيع الملح بأنفسهم، بل واستعادة السيطرة على كل الصناعات الوطنية التي تحتكرها بريطانيا. وكتب غاندي، وكان يبلغ 61 من عمره في ذلك الحين، في جريدة «يانج انديان» (الهندي الشاب) الأسبوعية، التي كان أسسها قبل ذلك بسنة «ربما فكر البريطانيون في ظلم كل هندي بفرض ضريبة على الماء، ثم وجدوا أن ذلك مستحيلا. ولهذا فرضوا ضريبة على الملح، وبدؤوا ظلما قاسيا لمئات الملايين من الجوعى والضعفاء».

قبل المسيرة بشهر، أي في فبراير (شباط) 1930، أرسل غاندي خطابا إلى اللورد اروين، حاكم الهند البريطاني، قال فيه «صديقي العزيز، فكرت لسنوات كثيرة قبل أن أبدأ هذا العصيان المدني، لكني وجدت انه الطريق الوحيد حتى تبقى الهند كدولة، وحتى لا يموت الهنود من الجوع» (...)« إننا نريد الحرية نفسها التي يريد تشرشل من البريطانيين أن يموتوا في سبيلها».

وفي الشهر التالي، وعندما لم يتسلم غاندي ردا، اجتمع حزب المؤتمر الهندي، وقرر أن موضوع الملح يؤثر على كل الهنود تقريبا، وانه سيساعد على جمع عدد كبير من الناس. وكانت بريطانيا، كلما واجهت مشاكل مالية وعجزت عن الصرف على حكومتها في الهند، خاصة وقت الحروب، تزيد الضرائب على الهنود، وبالتالي عندما واجهت صعوبات مالية في العشرينات أصدرت قانونا يخول لها احتكار صناعة

وبيع الملح، وتضمن القانون عقوبة بالسجن ستة شهور على كل من يصنع ملحا، وعلى كل من يذهب إلى البحر لصناعة الملح.

وفي أول خطاب، يوم بداية المسيرة من احمد آباد، خطب غاندي في المسيرة فقال انه «**نقسم بأننا إما سننال استقلال الهند، أو ندخل السجون. ونقسم أن استقلال الهند سيتحقق بدون عنف**». وفي ثاني يوم للمسيرة، في قرية ذابان، قال إن «في الهند ثلاثة أرباع مليون قرية، وإذا تطوع عشرة رجال من كل قرية لصناعة الملح لقريتهم، لن نحتاج إلى ملح البريطانيين». وفي رابع يوم، في قرية فاسانا قال «أعاهدكم بأن يوما سيأتي يعتذر فيه البريطانيون لنا على ما فعلوا بنا».

وفي سادس يوم، في قرية بورياقي، قال: «لن نؤذى أي مسؤول بريطاني. نعم، يحكموننا، لكنهم ضيوفنا». وفي اليوم الخامس والعشرين، في قرية تارسالا، قال انه سيقضي «هذه الليلة في منزل أخ مسلم بناء على دعوته». وقال: «يجب ألا نعطي البريطانيين الفرصة ليقسمونا إلى مسلمين وهندوس». واستمرت هذه المسيرة السلمية خمسة وعشرين يوما (من 12 مارس حتى 6 أبريل)، وعندما وصلت المسيرة إلى البحر، نزل غاندي البحر ورفع صخورا مالحة، رمزا لتحدي قانون الملح، وبداية لسبع عشرة سنة من العصيان المدني ضد الاختلال البريطاني. وخطب غاندي إمام إتباعه بأن الهدف «ليس فقط إعلان العصيان المدني في الهند، ولكن، أيضا، إقناع الشعب البريطاني نفسه بالعصيان المدني بعد أن يتضح لهم الظلم الذي يلحق بالشعب الهندي. واستطاع في النهاية عبر هذا النضال المسالم إلى خضوع السلطات البريطانية وتوقيع معاهدة دلهي [28] .

الصيام حتى الموت:

ولاحقا في عام 1932 أبدع غاندي طريقة جديدة في النضال أطلق عليها **الصيام حتى الموت**، حيث قرر غاندي البدء بصيام حتى الموت احتجاجا على مشروع قانون يكرس التمييز في الانتخابات ضد المنبوذين الهنود، مما دفع بالزعماء السياسيين والدينيين إلى التفاوض والتوصل إلى "اتفاقية بونا" التي قضت بزيادة عدد النواب "المنبوذين" وإلغاء نظام التمييز الانتخابي.

وقد وجدت هذه المنهجية السلمية التي اعتمدها غاندي طريقها إلى كثير من بلدان العالم حيث تبناها كينغ في نضاله من أجل المساواة بين السود والبيض في وسائل النقل العام في عام 1955. وقد شكلت هذه الطريقة منهجية سياسية تعتمد المسالمة مبدأ أساسيا في الصراع من أجل المبادئ والحق والعدالة.

ومما لاشك فيه أن الرفض والتمرد وعدم وجود التعاون الجمعي يؤدي إلى اضطراب السلطة وخوفها. وعندما يشارك الشعب بقوة وحماسة في النشاط اللاعنفي السلمي فإن هذا يؤدي إلى شلل في الحياة العامة للبلاد. وماذا يمكن للسلطة أن تفعل إزاء أناس يتدافعون كالجحيم دون خوف من عصي رجال الأمن وهراواتهم، إزاء قوم ر يرهبون الموت أو السجون؟ والسلطة عندما تواجه جحافل المتدافعين إلى الموت من أجل حقوقهم تفقد صبرها وبرودة دمائها وتبدأ بتوظيف العنف المهين ولكنها في النهاية تضعف وتستكين وتخضع لإرادة الشعب الشاملة.

وعندما انفجر العنف بين الهندوس والمسلمين في «كلكتا»، وسالت الدماء، **أعلن غاندي «الصيام»**. حتى إذا شارف على الموت، دخل عليه رجل مفجوع بولده وألقى إليه بقطعة خبز وقال له: كل حتى لا أكون سببا في موتك. تابع: هل تعلم ماذا فعلوا بابني؟ لقد قتلوه. وأنا قتلت من قتل ابني؟ نظر إليه غاندي برحمة وهو بالكاد يفتح عينيه من الإعياء وقال له: هل أدلك على ما هو أفضل مما فعلت فيأخذك إلى الجنة؟ عليك أن تأخذ الولد الذي قتلت أباه فتربيه على الدين الذي كان أبوه يريد أن ينشئه عليه. اغرورقت عينا الرجل بالدموع، وانكب على قدمي غاندي فقبلهما. وعندما توقفت مظاهر العنف في كلكتا، وهدأ الناس عن ذبح بعضهم بعضا، فقال غاندي لمن حوله: أعطوني كأسا من الليمون. بعدها بقليل، قرر غاندي أن يزور باكستان وهو يقول، **"سوف أكشف عن الشيطان الموجود في قلوب الهندوس والمسلمين"** (29).

العصيان المدني:

في عام 1922 قاد حركة عصيان مدني اشترك فيها المسلمون والسيخ والهندوس فتصاعد الغضب الشعبي إلى ذروته، فحدث الصدام الدموي بين الجماهير وقوات الأمن والشرطة البريطانية، وعندها أعلن غاندي الصيام احتجاجا على سفك الدماء ووقوع القتل، فجاءه نهرو وهو لا يصدق، وسأله هل تريد منا إيقاف المظاهرات وقد عمت كل البلد وليس بيننا وبين طرد بريطانيا إلا شعرة؟ **قال غاندي ليس المهم طرد بريطانيا بل طرد الشيطان من قلوبكم، وليس المهم أن يتظاهر الناس، بل المهم كيف يتظاهرون سلميا بدون قتل**؟ واعتبر (نهرو) يومها أن هذه سذاجة كبرى في علم السياسة. ولكن غاندي طلب من (نهرو) فك المظاهرات واستمر في الصيام حتى توقفت المظاهرات، ثم طلب (غاندي) أن يعتذر المتظاهرون علنا لمركز

الشرطة وطلب الصفح وتقديم التعويض عما حدث! (30). ومع ذلك وجهت ضده تهمة الإثارة ضد الدولة والعصيان واعتقل وسجن وعذب في المعتقلات البريطانية لأربعة سنوات متتالية.

لقد وهب الزعيم الهندي المهاتما غاندي حياته لنشر سياسة المقاومة السلمية أو اللاعنف واستمر على مدى أكثر من خمسين عاما يبشر بها، وفي سنوات حياته الأخيرة زاد اهتمامه بالدفاع عن حقوق الأقلية المسلمة، وتألم لانفصال باكستان وحزن لأعمال العنف التي شهدتها كشمير، ودعا الهندوس إلى احترام حقوق المسلمين مما أثار حفيظة بعض متعصبيهم فأطلق أحدهم رصاصات قاتلة عليه أودت بحياته (31).

تأثير غاندي:

شكل فكر غاندي وعقيدته النضالية مدرسة فلسفية كبرى في مفهوم التسامح والنضال السلمي في العالم أجمع. وهناك إجماع فكري عالمي على سمو وعظمة الفلسفة التي أوقدها غاندي في مجال النضال السلمي لتحرير النفوس والأوطان. لقد ترك تأثيرا ينقطع نظيره في ميدان الفكر والممارسة. ويعد كل من رومان رولاند Romain Rolland ولانزا ديل فاستو Lanza del Vasto [32] ولوي ماسينيون Louis Massignon من أوائل المفكرين الفرنسيين الذين تأثروا بعقيدة غاندي ومنهجه الإنساني. وكان لأفكاره قبيل الحرب العالمية الأولى دور كبير في توجيه نشاط جان جيينو Jean Giono الذي تعرض للاعتقال مع رفاقه على أثر تمرده المدني في عام 1939.

وقد عَرف مفهوم اللاعنف صعودا جديدا مميزا في عام 1955 في مونتغومري في ألاباما Montgomery en Alabama في الولايات المتحدة ألأمريكية على يد المفكر الإنساني والقس المعروف مارتن لوثر كينغ Martin Luther King حيث ناضل من أجل المساواة والعدالة الاجتماعية للسود الأمريكيين في عصره. وقد لعب النجاح الكبير الذي حققه كينغ في مستوى الولايات المتحدة الأمريكية أن يعزز مسيرة كينغ وأنصاره في مسار النضال المسالم (اللاعنف)، وذلك على الرغم من معارضة قادة السود الذين انتصروا للعنف في نضالهم وصراعهم. ففي عام 1968 قتل كينغ في ممفيس Memphis على أثر مسيرة سلمية من أجل المطالبة بحقوق عمال النظافة في المدينة(33) .

واستمر تأثير منهج غاندي المسالم في عدد من بلدان العالم ولاسيما في فرنسا حيث اتقدت المعارضة الشعبية السلمية ضد الاحتلال الفرنسي للجزائر. وقد تأثر فاستو Lanza Del Vasto بغاندي فقاد مظاهرات مسالمة على صورة مسيرات صامتة، وإضرابات عن الطعام، وإقامة مخيمات للمعارضة السلمية ..الخ. وقد

ظهرت حركات مسالمة ضد الخدمة العسكرية والضرائب وضد كثير من مظاهر الحياة الاجتماعية في أوروبا وغيرها من البلدان الغربية .

وفي هذا السياق يشار إلى دانييلو دولسي Danielo Dolci الذي أسس عام 1952 حركة مسالمة (غير عنيفة) من أجل إرهاف الرأي في صقلية بأوضاع الأحياء الفقيرة في باليرم Palerme. وفي الهند قام تلميذ غاندي Vinoba Bhave بالمشاركة مع الشباب الهندي ورجال الدين بالنضال السلمي(غير العنيف) من أجل الحصول على ملكيات عقارية كبيرة لصالح الفلاحين الفقراء. وفي البرازيل قام هيلدر كاميرا Helder Camara بتأسيس رابطة من أجل العدالة والسلام في عام 1968 وكان هدفها تنمية الثقافة السلمية والأخلاقية عند الأغنياء والفقراء. وفي يوغسلافيا ظهرت صيغ متطورة ومتطرفة للنضال السلمي(الانتحار حرقا كما حدث لـ إيان بالاش Ian Palach). وهذه الحركات النضالية المسالمة ظهرت في فيتنام وفي الولايات المتحدة الأمريكية ولاسيما ثورة الطلاب ضد الحرب على فيتنام وغير ذلك من أشكال النضال السلمي.

وباختصار يمكن القول: **إن منهج غاندي للنضال السلمي قد تحول إلى أداة نضالية في متناول الشعوب المظلومة والمغلوبة على أمرها من أجل العدالة والحق والمساواة**. وهكذا فإن مفهوم اللاعنف قد سجل حضوره في التاريخ الإنساني قوة هائلة تستلهمها الشعوب المظلومة كطاقة ثورية من أجل العدالة والحرية. لقد أطلق غاندي قوة فكرية إنسانية هائلة لتحرير الشعوب وهذا ما حدا بـ رومان رولاند بأن يشبه فكر غاندي بتسونامي هائلة انطلقت من أعماق الشرق ولكنها لن تسقط إلا عندما تغمر العالم برمته(34) .لقد نجحت إستراتيجية اللاعنف في السنوات الأخيرة في شيلي وجنوب أفريقيا وبولونيا والمجر وبورما وأوكرانيا وجورجيا. وكذلك استعمل اللاعنف لإسقاط نظام الطاغية سلوبودان ميلوسوفيتش في صربيا. وقد مارست فلسفة اللاعنف تاريخيا دورا هائلا في نضال الشعوب ولاسيما عندما طُبقت ببراعة وذكاء ولم يكن أدل على قوتها إلا القمع الذي استخدمه الخصوم في مجابهتها ومواجهتها (35) .

خاتمة:

رسخ غاندي منهجا عبقريا للنضال السلمي العالمي وشيد له مملكته الفلسفية. وأصبح اللاعنف عنوانا لفكر غاندي ورمزا لنضاله الإنساني. ومن البداهة اليوم أن اسم غاندي يرتبط برمزية السلام والكفاح من أجل

الحق والحرية. وليس غريبا أن تخصص الأمم المتحدة إكراما لغاندي يوما احتفاليا للكفاح السلمي كل عام تحت شعار اللاعنف يصادف يوم ميلاده.

وإننا في حيّز هذا الاختتام الصعب نريد القول بأن فلسفة اللاعنف عند غاندي ليست مجرد فلسفة نضالية من أجل السلام والحرية بمعناها السياسي. لقد أراد غاندي فوق ذلك كله أن تكون فلسفته نداء داخليا لتطهير النفس الإنسانية وصقلها وتحريرها من كل أشكال الكراهية والحقد والتعصب. لا بل أن غاندي اشترط أن النضال من أجل الحرية الوطنية لا يمكن أن يكون إلا بتطهير القلوب وصفاء الضمائر وصقل الوجدان. وهذا يعني بأن فلسفته كانت تحريرا للذات والنفس قبل أن تكون تحريرا للمجتمع من الظلم والقهر والعدوان.

ومن أجل أن نختتم هذه الدراسة حول مفهوم اللاعنف وفلسفته النضالية عند غاندي وجدنا أنه لمن المناسب أن نستعرض بعضا من حكمته الإنسانية ومواقفه الفكرية إزاء الحق والعدالة والحرية. فأقوال غاندي كلماته وأفكاره تشكل اليوم ملحمة مضيئة من الحكمة الإنسانية.

وإذا كان من بداية للقول فإن ما يتقدم هو إعلانه عن إيمانه المطلق بمبدأ اللاعنف حيث يقول: " "إن اللاعنف هو البند الأول لإيماني والبند الأخير في مذهبي"(36). ولكم هي كلماته مثقلة بالمعاني الخفية والذكية عندما يقول "إن النصر الناتج عن العنف هو مساوي للهزيمة"، فالحرب دامية كان من كان المنتصر فيها وبالتالي فإن الانتقام والرد على العنف بالعنف كارثة إنسانية حيث يقول: "إن العين بالعين تجعل العالم بأكمله أعمى" .

وإذا كان يؤكد دائما وأبدا بأن العنف هو عملية تطهير للنفس وتنقية لها من أدران الحقد والكراهية والتعصب فما أجمل قوله في تمجيد القانون الأخلاقي القابع في النفس حيث يقول: " إنني أرفض الخضوع للقانون وذلك ليس لنقص في قدرتي على احترام القانون بل لأنني أخضع إلى القانون الأسمى وهو قانون العقل الإنساني". وهو في هذا المسار ومن أجل أن يؤكد هذه الطهارة النفسية وضرورتها يؤكد أهمية تحرر الإنسان من الخوف من الموت في صراعه من أجل الحياة يقول وكم هو رائع قوله: "أنا مستعد لان أموت، ولكن ليس لدي ولن يكون أبدا أي استعداد للقتل"، وهكذا يقرر بأن الحرية هي الاستعداد للموت لأن في هذا الاستعداد يستطيع الإنسان أن يتحرر من الخوف المطلق ويبلغ نشوة الانتصار على الذات الإنسانية. ولم ترهبه أشواك الموت وأشراكه بل كان دائما على أهبة الاستعداد لهذا الموت الذي خطفه في النهاية إلى قائمة شهداء العقل والفكر والحرية، فكانت شهادته تتويجا لرحلته النضالية المفعمة بالعناء والعطاء في سبيل الحق والحرية.

لقد أراد كما أراد (كانط) من قبله أن يكون القانون الأخلاقي كليا شاملا فالخير هو خير الإنسانية كلها والشر بأي صيغة هو شرها بالمطلق ومن هنا كان يعتقد بأن الجريمة أية جريمة هي إجرام ضد الإنسانية وفي هذا يقول "**إن أية جريمة، أو إصابة بغض النظر عن القضية، ارتكبت أو سببت لشخص آخر هي جريمة ضد الإنسانية**". وكم هو قوله هذا جميل ومجانس لقول ماوتسي نفسه" أن تقتل إنسانا من أجل خير العالم أمر يتناقض مع خير العالم، ولكن أن تتألم وتضحي بنفسك من أجل العالم ذلكم هو الخير كله" (37) .

لقد حرر شعبه وبرهن لتشرشل حقيقة يجهلها وهي أن الحرية مطلب إنساني لكل الشعوب، وأن في طلب هذه الحرية تهون النفوس حيث يقول في رد له على تشرشل "**إننا نريد الحرية نفسها التي يريد تشرشل من البريطانيين أن يموتوا في سبيلها**». وتلك هي الحقيقة الصارخة، ألم يقض غاندي نفسه فداء للحرية التي كان يطلبها لشعبه ويضحي بحياته من أجل الكرامة الإنسانية؟

إن فكرة اللاعنف التي أسسها غاندي تزداد رسوخا و ثباتا مع الأيام، وفلسفته المسالمة أصبحت اليوم مدرسة إنسانية وفكرية ينهل من عطائها الإنسان المعاصر في مختلف أنحاء المعمورة. إن نجاح أسلوب اللاعنف على امتداد الساحة العالمية يحرك يضع شعوبنا اليوم على المحك التاريخي في قدرتها على ابتداع أساليب سلمية لتجفيف أرض الوطن العربي من دماء الأبرياء وتطهير القلوب من داء الطائفية والتعصب.

الهوامش والمراجع

(1)– المهاتما لقب نسب إلى غاندي ويعني أي صاحب النفس العظيمة.

(2) – الموسوعة الحرة ويكيبيديا، مهاتما غاندي، http://ar.wikipedia.org/.

(3)– لم ترق دعوات غاندي للأغلبية الهندوسية باحترام حقوق الأقلية المسلمة، فأخذته بعض الفئات الهندوسية المتعصبة بالخيانة العظمى فقررت التخلص منه، حيث قام أحد الهندوس المتعصبين باغتياله فسقط شهيدا عن عمر يناهز 79 عاما في 30 يناير/كانون الثاني 1948

(4) - Regarde: W. BORMAN, *Gandhi and Non-Violence* , State Univ. of New York Press, 1986.

(5) – عظة الجبل أو الموعظة على الجبل، بحسب إنجيل متى: الإصحاحات الخامس والسادس والسابع، هي عظة استثنائية ألقاها يسوع حوالي عام 30م على تلاميذه وحشد كبير م الناس.

(6)– أتيلا الهوني (The Hun Attila) ملك وفاتح تركي قديم عاش ما بين (406–453 م) كان آخر وأقوى حكام الهون و الهون (Huns) هم أجداد الأتراك.

(7) – انظر: غاندي،موهندس كرمشاند (المهاتما)، موسوعة السياسة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، المجلد الرابع، الطبعة الأولى 1986.

(8) سافر غاندي وعائلته إلى جنوب إفريقيا عام 1893، وسكن ولاية "ناتال" الواقعة على المحيط الهندي، مقيماً في "دوربان " التي عُرفت بصناعة السكر والتبغ والفحم، وعمل محاميا مدافعاً عن حقوق عمال الزراعة الهنود والبوير العاملين في مزارع قصب السكر.

(9)-- H. THOREAU, Du devoir de désobéissance civile (Civil Disobedience , 1849), trad. G. Brailion-Zeude, Seghers, Paris, 1965.

(10) – انظر: غاندي،موهندس كرمشاند (المهاتما)، موسوعة السياسة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى 1986، 31 – 32.

(11) – غاندي، موهندس كرمشاند (المهاتما)، موسوعة السياسة، المرجع السابق.

(12) رغداء زيدان، غاندي والساتياغراها، http://www.grenc.com/a/Rzaydan/show_Myarticle.cfm?id=8991

(13) – رغداء زيدان، غاندي والساتياغراها، المرجع السابق .

(14) – رغداء زيدان، غاندي والساتياغراها، المرجع السابق .

(15) رغداء زيدان، غاندي والساتياغراها، المرجع السابق .

(16)– رغداء زيدان، غاندي والساتياغراها، المرجع السابق .

(17)- Gandhi, The Collected Works of Mahatma Gandhi, Ahmedabad, The Publications Division, Ministry of Information and Broadcasting, Government of India, 1965, Vol. 18, p. 265.

(18)- Gandhi, All men are Brothers, Ahmedabad, Navajivan Publishing House, 1960, p. 119.

(19) – سيدهارتا بوذا Siddhartha Gautama (558 – 483 ق.م.)، وتعني كلمة بوذا Buddha حرفيا المستنير أو

المتنور وهو لقب أطلق على جوتاما بوذا إقرارا له بالعبقرية والذكاء والقدرة على الكشف النوراني. أنظر: علي وطفة وسعد الشريع، التربية تاريخا والفكر التربوية تطورا: معاينات في جدل الواقع والنظرية، مطبعة دار الفيصل، الكويت 2005، ص 77–78.

(20)- Enumus Jean. la non-violence , dans Encyclopédie française, France S.A, Paris , 1999 , Encyclopédie sur C.D.

(21) - Regarde: A. Vinoba Bhave, *La Révolution de la non-violence* (*Revolutionary Sarvodaya* , 1955), trad. C. Andrieu, Albin Michel, Paris, 1958.

(22)– راجموهان غاندي فلسطين و إسرائيل: من أجل جدار من الحماية، جريدة الحياة اللندنية، 2005/06/26.

(23) – صبحي درويش، هل نحن بحاجة إلى غاندي جديد، موقع أشرعة:

http://www.ashreah.net/vb/showthread.php?t=1156

(24) – صبحي درويش، المرجع السابق

(25) راديو الأمم المتحدة، الثلاثاء 20 تشرين الأول/أكتوبر 2007:

http://www.un.org/radio/ar/story.asp?NewsID=7029

(26)– انظر: بيير فرانسوا مورو، هوبس، ترجمة أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1993.

(27)- L. FISCHER, *La Vie du Mah tm Gandhi* (*Life of Mahatma Gandhi* , 1951), trad. E. Bertaux, Calmann-Lévy, Paris, 1952.

(28)– انظر: محمد علي صالح، غاندي: مسيرة بدأت بالملح وانتهت بالاستقلال، الشرق الوسط، **الجمعة 15 صفر 1426 هـ 25 مارس 2005 العدد 9614**.

(29)– صبحي درويش، داعية اللاعنف المهاتما غاندي، في مجلة المثقف، مجلة إليكترونية، www .almothaqaf.com.

(30)– صبحي درويش، داعية اللاعنف المهاتما غاندي، المرجع السابق.

(31)– أديسون **هيدو**، المهاتما غاندي داعية اللاعنف، شبكة زهريرا الإخبارية، http://www.zahrira.net/.

(32) - LANZA DEL VASTO, Les Quatre Fléaux , 1959, nouv. éd., 2 vol., Gonthier, Paris, 1977.

(33) - C. S. KING, *Ma Vie avec Martin Luther King* (*My Life with Martin Luther King* , 1969), trad. A. M. Soulac, Stock, 1970

(34) - M. K. GANDHI, *La Jeune Inde* (articles de *Young India* , 1919-1922), trad. H. Hart, Paris, 1924;

(35) – صبحي درويش، هل نحن بحاجة إلى غاندي جديد، موقع أشرعة:

http://www.ashreah.net/vb/showthread.php?t=1156

(36) – راديو الأمم المتحدة، الثلاثاء 20 تشرين الأول/أكتوبر 2007:

http://www.un.org/radio/ar/story.asp?NewsID=7029

(37)- Enumus Jean. la non-violence , dans Encyclopédie française, France S.A, Paris , 1999 , Encyclopédie sur C.D.